مقدمة المؤلف

إن جزيرة العرب، وهي واقعة كما هي في التقاطع الفعلي للمصير الإنساني - في منتصف الطريق بين الشمال والجنوب، والشرق والغرب من العالم المعمور - كانت تشاهد باستمتاع وعزلة عرض كوميديا الصراع الإنساني. فهي، التي كانت " أرض البحر " للبابليين القدامى، قد أصبحت ولا تزال "جزيرة العرب" - جزيرة صحراوية . إن لسانها الأصيل والقديم، قد انغرس في أراض كثيرة ليعطينا في لغتنا (ثور) في كورنوول و(عبير) في ويلز . كما أن (إيدس) في روما تذكر المرء بكلمة " عيد " الوثنية، التي أصبحت اسماً للأعياد والاحتفالات في الإسلام . بل إن اسم أوربا نفسه فيه صدى "عروبة" العرب، مثلما أن الإغريق استعاروا كلمتهم (الصحراء، التيه) من "عرمة " . بل إن مكاناً نائياً كالبرازيل لايزال يحيي ذكرى البرازين أو حصون كورتيز . وهلم جرا .

والجزيرة العربية لشهرتها القديمة بالكرم، كانت هي التي فتحت ذراعيها للاجئين من الطوفان والفارين (من مصر)، وحديثاً جداً، من أوربا، وإن لم يكن بالقدر نفسه من حسن الضيافة . لقد كانت هي التي أنجبت الديانات العظمى الثلاث، الموحدة . فالأوليين، تعهدتهما بتسامح وثني، أما مولودتها الأخيرة فقد احتضنتها في صدرها بكل عاطفة الأم. لقد كانت "القوة العظمى" في العالم مرتين - في أيام سبأ وفي عصر الخلفاء . لقد شهدت كل الإمبراطوريات تزدهر وتضمحل - الحيثيين والأشوريين، بابل وفارس، ومصر واليونان وروما : (وإمبراطوريتها) نفسها التي تعثرت في الفوضى، التي أنجبت أعظمها جميعاً، وما زالت مشتبكة في عراك قاتل مع التنين . لقد شهدت

ميلاد إسرائيل في معاناة مصر الفرعونية، وشهدت كيف خضع انحطاط روما في زمن أوغسطس لروح النصرانية الجديدة . لقد شهدت إمبراطورية قسطنطين وهي في زمن تدهورها تهددها إمبراطورية فارس المنافسة لها، وكيف انهارت الاثنتان معاً تحت الأنفاس الحارقة من وحيها نفسها الآتي من مكة . لقد كان آخر أنبيائها هو ذلك الذي بلَّغ العالم صورة تلك الكارثة في سورة مشهورة من القرآن: ﴿ **الٓمٓ ۝١ غُلِبَتِ الرُّومُ ۝٢ فِي أَدْنَى الأَرْضِ وَهُم مِّنْ بَعْدِ غَلَبِهِمْ سَيَغْلِبُونَ ۝٣ فِي بِضْعِ سِنِينَ لِلَّهِ الأَمْرُ مِن قَبْلُ وَمِنْ بَعْدُ وَيَوْمَئِذٍ يَفْرَحُ الْمُؤْمِنُونَ ۝٤ بِنَصْرِ اللَّهِ يَنصُرُ مَن يَشَاءُ وَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ** ﴾ [الروم: ١-٥]. فتم ذلك حقّاً . في الفترة ما بين ٦٠٨ و ٦١٩م فقدت روما كل ولاياتها الشرقية . والشيء الموثق المعلوم أن أهل تلك البلاد المذهولين نظروا إلى هذه الأحداث بعدم اكتراث تام - لقد فقدت روما مكانتها في حبهم وهيبتهم لها . ولم يكن الإمبراطور هرقل في موقف يرد به على الهجوم في ٦٢٣م، لكنه في ٦٣٠م أعاد الإمبراطورية الرومانية إلى حدودها السابقة . ثم وقعت المعجزة التي جاءت نبوءتها في الآية التي استشهدت بها . ففي عام ٦٤٢م، بعد عشر سنوات من موت محمد ﷺ، حُقَّ للمؤمنين فعلاً أن يفرحوا منتصرين، فقد قامت الإمبراطورية الفتية للعرب على أنقاض روما وفارس . لقد عاشت لقرون، ثم شاخت في ضعف وانحطاط، حتى انهارت تحت ضربات مطارق الأتراك .

إن هذه اللمحة المختصرة في الماضي ليست بغير معنى اليوم، والعالم المعمور منقسم مرة أخرى إلى معسكرات متحاربة مشتبكة في صراع إما للسيادة أو البقاء . وكما هو العهد بهم، فإن العرب متفرجون متابعون باهتمام للدراما . فقد أحيا اهتمامهم البعث الحديث نسبيّاً لإحساسهم الذاتي بقوميتهم، الذي

لايخلو من طموحات شجعتهم عليها إنجازاتهم الماضية. ولكن الجزيرة العربية كانت متأخرة منقطعة عن ركب التطور المادي الحديث؛ وسعيها لأن تؤدي دوراً صغيراً على مسرح الحرب العظمى، لم تحسن توجيهه أسرة من أشرف مولد لازمها سوء الطالع، لم يجلب لها سوى الإحباط وخيبة الأمل[1]. فمن دون الأسلحة الحديثة، بقي العرب عاجزون، وسياسة القوى المنتصرة خلال الجيل الذي أعقب ذلك الصراع، وبالرغم من الثورات المتفرقة، نجحت في تقسيم العالم العربي إلى بضع دول صغيرة جداً، ظل معظمها تحت السيطرة المباشرة أو غير المباشرة للقوى الأوربية، التي فرضت هيمنتها على الدول الناطقة بالعربية في شمال إفريقيا، المعتزة بثقافتها العربية الإسلامية، من المغرب إلى السودان. وليس من المجدي التظاهر بأن العرب تسرهم، أو قد سرتهم أبداً، هذه السيادة للغرب على بلدانهم، التي نجحت اثنتان منها فقط في المحافظة على استقلالهما. هاتان هما اليمن (في صراع مع السلطات البريطانية في عدن مرات ليست بالقليلة) والمملكة العربية السعودية، التي ضمت إليها الحجاز والمنطقتين السابقتين لحائل وعسير، وازدهرت بإدارة حكيمة وقوية من رجل سينادي به التاريخ بأنه أعظم رجل أخرجته بلاد العرب منذ النبي محمد ﷺ نفسه[2]. لقد تولى الملك عبد العزيز بن سعود عرش آبائه قبل اثنتين وأربعين سنة[3] كمعاصر لملكتنا نحن - الملكة فكتوريا - وبكل تأكيد إنه أحد الملوك القلائل جداً الحاكمين فعلاً، الذين يستطيعون ادعاء هذا التميز. ولحسن حظه،

(١) المقصود الأشراف الذي كانوا يحكمون الحجاز (المراجعون).

(٢) في قول المؤلف مبالغة لا تجوز، والملك عبدالعزيز -رحمه الله- من أعظم قادة الإصلاح في العصر الحديث، وقد أثبت لنفسه ولبلاده مكانة مرموقة نالت تقدير الشرق والغرب. (المراجعون).

(٣) يقصد المؤلف هنا عام ١٣١٩هـ/ ١٩٠٢م عندما تمكن الملك عبدالعزيز من استرداد الرياض وبدأ في الانطلاق نحو إعادة تأسيس المملكة العربية السعودية وتوحيد أجزائها. (المراجعون).

وحظ شعبه، وحظنا، أن طيب علاقته ببريطانيا العظمى لم تكن موضع شك، بالرغم من تلك النسمات المتفرقة التي هبت شديدة على سطح الصلات الدبلوماسية بيننا. وكان عدد متعاقب من الإنجليز، كنت الأقل فيهم، خلال هذه العقود الأربعة، قد رعوا تلك الصداقة بإعجاب عميق بذلك الرجل، وباستثناء حالات قليلة، شجعوا ذلك الاستقلال القوي الذي كان في بعض الأحايين مصدر يأس لبعض إداراتنا الحكومية ولمعظم نواب قناصلنا في الشرق الأوسط. وبالرغم من ذلك فإن استقلاله ذلك بعينه هو الذي يجعلنا في الوضع المتميز اليوم. فلو كان لنا في الملايو أو بورما - بل في الهند أيضاً - زعيم من صنفه، أهل لثقتنا، لما تركنا الناس " عزلاً لأعدائنا ". ولكننا ينبغي علينا ألا نخطئ أبداً. فالعرب غير راضين عن سياستنا ونتائجها. ولا ابن سعود أيضاً؛ ولا ملك اليمن؛ ولا مصر، أو سوريا، أو العراق، وذلك فضلاً عن فلسطين وشرق الأردن اللذين نحكمهما فعلاً بمقتضى انتدابنا؛ ولا الدويلات الصغرى على الساحل العربي[1]. فكلها بلا استثناء تطالب بالاستقلال التام لكل الشعوب العربية، وهو مطلب متفق تماماً مع ميثاق الأطلسي. وبهذا الثمن كنا سنلقى التعاون التام من كل العرب كحلفاء من أول لحظة في هذه الحرب. ولكن الثمن لم يبد في نظر حكومتنا آنذاك مستحقّاً للدفع لمنفعة كان مشكوكاً فيها. والآن قد فات الأوان، وعلينا أن نتحسر على ترددنا في النظر بعيداً أمامنا؛ ولن يخطئ المرء خطأ كبيراً إن قال إن البلد الوحيد الذي لم يسبب لنا مشكلة لحظة واحدة أو همّاً أثناء هذه الحرب هو المملكة العربية السعودية، التي احترمنا استقلالها، مهما كان ترددنا في ذلك أحياناً. لقد كان علينا محاربة

(١) المقصود إمارات الخليج العربي التي استقلت عام ١٩٧١م وكونت كل من دولة الإمارات العربية المتحدة، ودولة البحرين، ودولة قطر. (المراجعون).

العراق وفارس؛ وكان علينا مساومة تركيا مساومات مضنية ؛ وكان علينا حبس الوطنيين السوريين للحيلولة بينهم وبين خلق المتاعب؛ وكان علينا مسايرة مصر بحذر شديد ؛ وفي الدويلات العربية الصغرى كان علينا الاحتفاظ بقوات فيها لضمان حسن سلوكها .

ولكن ابن سعود لاينبغي أن يحسب من بين حلفائنا . فهو محايد من الناحية الفعلية ، ومن الناحية القانونية أيضاً ، وفي حكمته التي لا يسبر غورها ، متجاهل لحالة الحرب المحيطة ببلاده من كل جانب . وملك اليمن ، من جهة أخرى ، كان قد أعلن حياده رسمياً منذ مدة . ولما فقد الإيطاليون سيادتهم على أراضيهم عبر البحر الأحمر ، طلب الملك ابن سعود من دبلوماسييهم وغيرهم من مقيميهم في جدة مغادرة البلاد تحت الحماية إلى إيطاليا . لكنه من جهة أخرى محافظ على صلاته الدبلوماسية بحكومة فيشي[1] ، حيث يمثله وزير (نقل قبل عهد قريب إلى جنيف) ، بينما لحكومة المارشال بيتان ممثل أيضاً في جدة ؛ كما سمح لممثل لحكومة فرنسا الحرة بزيارة جدة أثناء الحج الأخير ليرعى شئون الحجاج السوريين . وبدون أن يخسر مثقال ذرة من صداقته الطويلة مع بريطانيا ، فإن ابن سعود يقود سفينته بمهارة بين صخور محيط الدبلوماسية .

إن هدفه الوحيد هو حماية مصالح الإسلام والعرب . ولن ينكر أحد أن البلاد ، التي يحكمها ، نعمت لجيل كامل ببركة السلم ، بقدر لا نظير له في تاريخ شعبه ، ويندر أن يضاهى في أي مكان آخر في العالم المضطرب في زماننا . فبالسلم نعمت بلاده بالتقدم والرفاهية . فالحج السنوي إلى مكة ، وكما يشهد بذلك عشرات الألوف من الحجاج ، أصبح أكثر أمناً ويسراً عن ذي

(١) حكومة فيشي : حكومة فرنسية متعاونة مع الاحتلال الألماني ، أخذت اسمها من منتجع فيشي بجنوب فرنسا ، الذي اتخذته عاصمة لها ، استمرت من سنة ١٩٤٠ إلى ١٩٤٤م . (المراجعون) .

قبل . وبمعاونة المعدات والآلات الصناعية الأجنبية أجبرت الصحارى العربية على تسليم كنوزها المخفية - الزيت والذهب بصفة رئيسة - بإجراءات تضمن تسخير فوائد هذه الاستثمارات لزيادة الرفاهية العربية في المقام الأول . لقد أسهمت فعلاً إسهماً كبيراً في تطوير الاتصالات في بلد واسع ، قليل السكان ، بكل ما يعني ذلك مما سيؤدي إلى إدارة أحسن كفاءة . فالسيارة ، بل والطائرة ، والبرق اللاسلكي والراديو ، والإضاءة الكهربية ، والآلات الزراعية ؛ فهذه من بين وسائل الحضارة الغربية التي أصبحت مألوفة تماماً فيما كان من قبل أرض مخاطر وقصص غرامية وهمية . ولئن لم يسمح بالسينما ، والمراقص ، وصالات القمار وغيرها من مظاهر الدعة الغربية أن تدخل المملكة العربية السعودية ، فذلك لأن ابن سعود حكيم في جيله . إن "أيام العرب" تختلف شيئاً قليلاً اليوم عن أيام الأقوام الأخرى ، ولكن ليالي العرب تحتفظ بسلمها وهدوئها القديمين ؛ وعلينا ألا نتمناها غير ذلك .

كل ذلك من صنع ابن سعود بوصفه حاكماً مطلقاً في وسط ديمقراطي ، لأن الجزيرة العربية أكثر بلدان العالم ديمقراطية . والعربي فردي من الدرجة الأولى ؛ وفي أرضه يقدس المرء ثلاثي "الحرية ، والمساواة ، والإخاء" بحماسة أشد مما عرفتها فرنسا . ولكن ، هناك يكمن الخطر . فلا أحد يقدر على الحكم في الجزيرة العربية إلا كمترجم ومنفذ لإرادة الناس . ومهم جداً أن يفهم الناس في الغرب معنى ذلك . وفيما يخص الأطراف الثلاثة ، فإن كل البلدان العربية تريد الحرية والاستقلال . فإن كنا مخلصين في تشجيعنا أيام الحرب لكل "البلدان المحبة للحرية" ، فإننا لايمكننا أن نثير اعتراضات تافهة على ذلك . لقد كانت بريطانيا العظمى ، نيابة عن كل الدول المتحالفة في الحرب العظمى في

تاريخ سابق بعيد يرجع إلى ١٩١٥م، قد وعدت كل الدول العربية بالحرية. ولكن ذلك الوعد لم ينجز أبداً. فمعظم الدول العربية لاتزال واقعة تحت سيطرة فعلية أوربية في شكل ما أو آخر. ومن الطبيعي أن يؤمل العرب في أن تثمر الحرب الحالية[1] عن تحقيق تطلعاتهم القومية للحرية. إن دعاية دول المحور تعزف على نغمة " الهند للهنود "، " مصر للمصريين "، " بلاد العرب للعرب ". إن صدق هذه الدعاية يمكن الطعن فيه، ولكنها لا تخلو من التأثير. إنها تسلم من حيث المبدأ بمطلب العرب، بينما الدعاية الأمريكية والبريطانية، ولعلها لاتزال ذاكرة لوعود الحرب العظمى، تظل صامتة، مما فيه إضرار بمصالح الحلفاء. ولنحاول إذن تفهم الموقف العربي.

أولاً، لا ينكر أحد ما، له أي إلمام بالموضوع، أن الرأي العام العربي برمته بلا استثناء، ومنذ الحرب العظمى حتى اللحظة الحاضرة، معاد للأطماع الاستعمارية لكل من فرنسا وإيطاليا. ثانياً، لقد أثبتت تجربتنا أنه، وخلال الفترة نفسها قد كانت هناك ولاتزال نقاط كثيرة للخلاف بين السياسة البريطانية والطموحات العربية، يمكن إزالتها في ضوء نظرية الرئيس روزفلت عن " الحريات الأربع "، إن كانت لدينا العزيمة لتسويتها. وثالثاً، وهو المهم جداً، في واقع الأمر، ليس ثمة قضية أبداً هي موضع جدال بين بلاد العرب من جهة وألمانيا واليابان من جهة أخرى إلا الخوف من أن تطمع هاتان الدولتان، إن واتتهما الفرصة، في أن يحلاَّ محل بريطانيا في السيادة على العالم العربي. وأخيراً، وليس بأي حال من الأحوال آخراً، إن لحكومة الولايات المتحدة الأمريكية سجلاً نظيفاً جداً، فيما يتعلق بالماضي والمستقبل. وإن كثيراً من

(١) أي الحرب العالمية الثانية. (المراجعون).

العرب ليذكرون، بالشكر والأمل، جهاد الرئيس ويلسون لتأمين استقلال سوريا .

وتلخيصاً للموضوع - ربما كان بين العرب عناصر قليلة يعدها المرء معادية لبريطانيا أو منحازة للمبادئ الاستبدادية، التي كانت أصلاً قد بدأت بأتاتورك قبل أن ينادي بها موسوليني أو هتلر أو فرانكو . وإن عشرة في المئة لكل واحد منهما، ستكون حسماً سخيّاً ليشمل أصحاب هذا التفكير أو ذاك . ويبقى بعد ذلك لب صلب من الشعور العربي، ٨٠ في المئة من الناس، " محب للحرية " في المقام الأول، وبالتالي " معاد لأوربا "، بمعنى أن العرب يبغضون ميل الغرب النصراني، اعتماداً منه على قوته العسكرية، إلى المطالبة بالسيطرة على البلدان المسلمة في الشرق الأوسط ونجاحه في ذلك . وليس لدى العرب بغض مزمن لشعوب أوربا، وأقلها جميعاً للبريطانيين؛ ولكنهم يطالبون لأنفسهم بحق أن يحيوا حياتهم الخاصة بهم بطرقهم الخاصة بتحرر من الخوف، وحرية العبادة وحرية الكلام . أما التحرر من الحاجة فإنهم يتضرعون إلى قوة أعظم من القوى الكبرى[1] . ففي هذا التضرع وفي هذا الطلب، يقودهم إمامهم الطبيعي، جلالة الملك عبدالعزيز بن سعود .

(١) المقصود أنهم يتضرعون إلى الله عز وجل كما يأمرهم بذلك الإسلام . (المراجعون) .